"نجاح الطلاب نجاحي .. وإبداعهم إبداعي"

سهاد السيد

حين طلب مني أن أكتب قصتي في المسيرة التعليمية، اجتاحتني رغبة جامحة في الكتابة، أمسكت اليراع حتى أكتب ما أريد، فاصطدمت بجدار الصمت. صمت ربما يكون صمته مسموع، وجدار أرجعني إلى ذكريات الماضي؛ ماض حمل في أحضانه تعب الحياة وشقاءها، ومحاطين بعباءة الفرح من تحقيق أهداف حلمت بها.

طالما حلمت وأنا طالبة على مقعد الدراسة، أن أصبح معلمة تترك أثراً في الأذهان، لا ينسى ويبقى تأثيره مرتبطاً بعلاقة طردية مع تقدم السنين. كانت مرحلتي الدراسية أجمل أيام عمري مع معلماتي المخلصات وصديقاتي المحبوبات، فأمضيت معهما عشر سنوات من العمر، وما زالت أتذكر نفسي وأنا في الصف الأول، وأين جلست؟ ووجه معلمتي المفعم بالحيوية والنشاط؛ لإيصال المعلومات لنا، ونحن متلهفون لنعيد من ورائها أ ب ج ... نمسك هذه الحروف بين يدينا، وننادي عليها، والأروع من ذلك وجود صديقتين بقيتا معي منذ الصف الأول حتى نهاية المرحلة الدراسية الثانوية.

آه كم أنا مشتاقة لهما، يا ليت الأيام تعود وأعيش معهما ساعة واحدة في المدرسة، كما أحببنا معلمة العلوم في المرحلة الأساسية المتوسطة، كونها مميزة عن باقي المعلمات، فهي تتمتع بشخصية رائعة لطيفة، فأسلوبها يتمتع بالمرونة التي تجعلنا نخطئ ونصحح، دائما كانت تقول لنا: «من لا يخطئ لا ينجح». أجمل حصصها هي حصة المختبر، كانت تجهز المواد، وتجعلها بين أيدينا لنجرب، ونعمل التجربة، ونتوصل إلى النتيجة بكتابتها على اللوح.

كانت تسمح لنا بالتعبير عن آرائنا، ولديها كل الاستعداد لإعادة الدرس حتى نتوصل لنتيجة ترسخ في عقولنا. فحينها تغلغل بداخلي حلم تمنيت أن أحققه وأصبح معلمة علوم، كما كانت.

سارت الأيام ومضت، وأنهيت الثانوية العامة للفرع العلمي بتقدير جيد، فكانت هذه السنة صعبة جداً؛ لأنني من خلالها كنت في صراع مع نفسي، حتى أجيب عن السؤال التالي: هل أستطيع إكمال دراستي الجامعية؟ فلن أقبل نهائياً ان تكون الإجابة «لا».

بقيت في البيت مدة عام، وتفكيري ينذرني ببعد حلمي؛ لأن الجامعات لن تسمح لك بالدخول إلا إذا دفعت القسط قبل الدراسة؛ فالظروف المادية لن تسمح لي بإكمال دراستي الجامعية.

بعدها، لا أعرف ما الذي حدث؟! حدث شيء ما، سجنت نفسي بين نيران الحيرة، هل أقبل بالزواج؟ فالقدر أقوى منا جميعاً، وقطار

الفراق أعلن استقراره في محطتي ونقلني إلى حياة أخرى.

تزوجت وأفكاري تجول في رأسي هل الحلم ضاع؟ لذلك لم يكن لي أي مطالب للزواج سوى مطلب واحد، هو أن أكمل دراستي الجامعية.

مرت الأيام، وبمرورها كان يزداد خوفي من المستقبل، لا أجد فيه حلمي، عملت مرة عند طبيب عيون بتنظيم مواعيده ومواعيد المرضى، وقمت بتجميع أول قسط للفصل الأول للدراسة الجامعية، وأنهيت العمل وقررت حينها أن أخرج من هذا الخوف وأتحدى الحياة.

دون تردد وخوف أخذت شهادتي وأوراقي الرسمية، وذهبت بها إلى جامعة القدس المفتوحة؛ لأنها كانت الحل الوحيد أمامي؛ لإكمال دراستي وتربية أولادي، وسجلت بها في قسم التربية (أساليب تدريس العلوم).

بدأت بالدراسة، وكنت أسعى أن أكون من المتفوقين، لكي تمنحني الجامعة منحة دراسية للفصل التالي، وهكذا حتى انتهيت من الجامعة وتخرجت في العام 2006.

الحمد لله، أنهيت دراستي الجامعية، فلم تكن سهلة نهائياً بالنسبة لي من ناحيتين: بتوفير القسط وإدارة الوقت بسبب وجود طفلين صغيرين، فلم تكن فرصة الدراسة متاحة في وقتها، لأنهما متعلقان بي كثيراً، فابني الصغير كان يأخذ الكتاب من بين يدي.

بعد عام من التخرج، تقدمت لامتحان الوظيفة في وزارة التربية والتعليم، وحصلت على الوظيفة في العام 2008. شعرت حينها بفرحة كبيرة، تغلبت على تعب السنين، وانقلبت مرحلة حياتي من ربة منزل إلى معلمة للأجيال أحمل بين أحضاني رسالة عطاء وإخلاص ينقل للأجيال القادمة. كان تحضيري للحصة الأولى وهي بعنوان: «تحولات الطاقة» للصف الخامس الأساسي، بكتابة أهداف الدرس على السبورة، وإحضار وسائل تعليمية محسوسة؛ لتحولات الطاقة مثل: مكواة، ومصباح يدوي ... .

وفي آخر عشر دقائق قبل نهاية الحصة، قمت بإعطاء كل طالبة ورقة عمل تتضمن ملخص الدرس وهدفه، والإجابة عنه بخمس دقائق، ومناقشة الورقة مع الطالبات بعمل ورقة العمل نفسها على ورق مقوى كبير وعرضها على السبورة، والحصول على التقويم النهائي للحصة، وتحقيق أهدافها، بحيث يستغرق وقت المناقشة خمس دقائق نهاية الحصة.

شعرت حينها بسعادة لتحقيق هدف الحصة والحصول على تقدير جيد جداً من قبل مديرة المدرسة، ومعلمة علوم لها خبرة. قبل البدء بالحصة شعرت بالقلق والتوتر، بسؤال نفسي: هل أستطيع توصيل المعلومات للطالبات بشكل مبسط وسهل؟ وماذا سيكون آراء الطالبات في معلمتهم الجديدة؟

نظرتي إلى تدريس العلوم تتجاوز حصره في منهاج أريد أن انهيه، أو معلومات يقدمها المعلم ويحفظها الطالب ويحصل على علامة كاملة، بل أريد أن أصل مع طلابي إلى أرقى الأهداف، وأكثرها إفادة للحياة العلمية والعملية.

كنت أعتقد أن مهنة المعلم قبل أن أجرب التعليم تتمثل في معلم يقوم بإعطاء المعلومات، ويختبر الطلاب. لكن بعدما اندمجت في مهنة التعليم، وقمت بتجريب نفسي ودخول الصف وخروجه، ومشاهدة الطلاب والتعرف على آرائهم وسماعها، تغلغلت بداخلي قيمة هذه المهنة والمحافظة عليها. عهد علي أن أحافظ على مهنتي بإخلاص؛ لأنني أحببتها كثيراً، ولم أتوقع أن أحبها بهذا الشكل؛ فهي من أسمى الرسالات وأرفع الوظائف.

قبل إعطاء الحصة لأي درس، أحدد ما هو الهدف المراد تحقيقه منه، والتأكيد عليه وعلى مفاهيمه الأساسية، ولكنني أتفاجأ أحياناً ببعض الطلاب الأذكياء الذين قد يغيرون مسيرة الحصة قليلاً، لكنهم يستحقون الاهتمام، حين يجيبون على السؤال بطريقة ذكية وصحيحة، ويحق لكل طالب التفكير والتعبير عن رأيه بالطريقة التي يريدها، فلا يوجد لي طريقة محددة لتفكير الطلاب وإجبارهم عليها.

بعض الطلاب بحاجة إلى قراءة السؤال وإعادته مرة أو أكثر، فإذا كانوا يحتاجون إلى ذلك فليكن، فمن لا يقرأ لا يفهم، فالإعادة تحقق لهم النتيجة. التنويع في الأساليب رائع، وأتمنى أن أحصل على عدد كاف من الأساليب، ودخول الصف في كل حصة بأسلوب مشوق وممتع، حيث اتبعت أسلوب التمثيل لتحقيق أهداف تربوية، وأسلوب التجريب، بأن يجرب كل طالب بنفسه حتى يصل إلى المعلومة.

أرغب في أن يصل الطلاب في نهاية كل حصة، إلى الهدف من وراء الدرس، وكيف فهم المادة، وماذا تعلم منها؟ فهذا بحاجة إلى أساليب متنوعة، لشد انتباههم، وفي حالة ابتعادهم عن الدرس، أقوم بسرد قصة ترجعهم إلى المادة بلهفة.

اعتمد على أسلوب المسابقة على شكل مجموعات داخل غرفة الصف، حيث يشجعهم على الاستمرار معي، بهدف الخروج من روتين التلقين إلى تعليم مؤثر بالمناقشة والحوار الهادئ، مبنياً على أفكار الطلاب، فأنا وطلابي جسد وروح، فنجاح الطلاب هو نجاحي، وإبداعهم إبداعي، وسأحافظ على هذه المهنة.

سهاد السيد
مدرسة يبرود الأساسية المختلطة – رام الله